ملك يأكل العشب

كل هذا جاء على نبوخذ نصر الملك

(دانيال4: ٢٨)

للدكتور توماس دويت تالمدج

ترجمة واصف عبد الملك

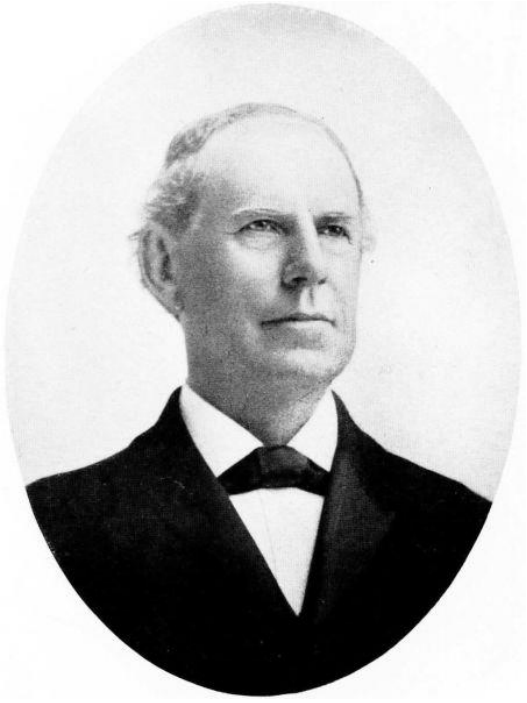

Rev Thomas DeWitt Talmage

[Birth - Jan 1832 - New Jersey, USA] [Death - - Apr 1902 (aged 70)]

تالمدج (١٨٣٢ – ١٩٠٢)

كما كان الإنسان يرى الجموع تقاطر إلى كنيسة (بينشر) قبل تالمدج هكذا كانوا في الحقبة التالية في كنيسة (بروكلين نابر ناكل) في أيام المدج ، وكانت عظاته تطبع في 3600 جريدة توزع في كل أرجاء الولايات المتحدة ، بل في كل الشعوب الناطقة بالإنجليزية . وإذا اما ذهب لإلقاء عظة في بلد من البلاد كانت الحكومة تسير قطارات خاصة لتلك الجهة كدة الإقبال عليه ولد في (بوند بروك) من أعمال نيوجرسي في 7 يناير سنة ١٨٣2 ، وكان حاضراً من الطراز الأول ، كما كان خطيباً متفنناً في الخطابة ، يصور حقائق. الإنجيل البسيطة بأسلوب أخاذ، ولغة فصيحة مدعمة بأمثال و توضيحات متعددة . ولقد روى لي أحد المرسلين الأمريكان أنه شاهد هذا الواعظ الموهوب في أحد المجامع ، وكان الناس مشدوهين لقدرته على وصف أهوال الجحيم حتى تحطم كثير من المقاعد لكثرة تشبث الجالسين عليها لئلا ينحدروا إلى قرارة الهلاك وقد توفي في مدينة (وشنطون) في سنة ١٩٠٢.

يقول سير (هنري رو نصرن) الرحالة المستشرق إن الحفائر دلت على أنه ليس في بابل وحدها ، بل في مائة مدينة أخرى حولها في منطقة مساحتها مائة ميل طولا وثلاثين عرضاً ، وجد اسم نبوخذ نصر محفورا على أبنيتها . نعم ، فلقد كان فاتحاً عظيماً، لدى بريق سيفه تنطرح دول بأسرها .كما انه كان ملكا عظيماً ، دانت بابل بمظمتها لجبروته ، فهناك بيوتها تحف بها الحدائق الغناء الفسيحة ، وأسطحها متصل بعضها بعض بكبارى معلقة.

وذات يوم كان يتمشي على هذه الجسور المعلقة ، وكأني به يرافق ضيفاً ملكيا وبريه إتساع ملكه ، و يلوح بيده عبر الفضاء اللانهائى ويقول : . أليست هذه بابل العظيمة التي بنيتها لبيت الملك بقوة اقتداري ولجلال مجدي ؟ ، ، أو بمعنى آخر : « ما أعظم ما أتاه رجل مثلى من جلائل الأعمال ! إن بابل لم تكن شيئاً منظورا حتى نفخت فيها روح العظمة ، انظروا إلى تلك القنوات تجرى في ارجائها، وإلى الحدائق الغناء تعطر أنحاءها ، و إلى القلاع الجلاميد على أبوابها .هذا كله من صنعي . وسيبقى اسمي خالداً على كل حجر فيها . إن هذا كله فوق طاقة البشر، وما أنا ببشر لأنه ليس لي في بني آدم ضريب. لكن، في برهة واحدة تلاشي كل هذا الجلال، وناداه صوت من السماء قائلا: " يا نبوخذ نصر الملك ، إن الملك قد زال عنك ، و يطردونك من بين الناس ، وتكون سكناك مع حيوان البر ، و يطعمونك العشب كالثيران ، فتمضى عليك سبعة ازمنة حتى تعلم أن للعلى سلطاناً في مملكة الناس وأنه يعطيها من يشاء . وفي تلك الساعة تم الأمر على نبوخذ نصر فطرد من بين الناس ، وأكل العشب كالثيران ، وابتل جسمه بندى السماء ، حتى طال شعره مثل النسور وأظافره مثل الطيور".

وهذه النكبة التي نكب بها في عقله يسميها الإغريق (ليكانثروبي)، وهو مرض يجعل الإنسان يتصور أنه حيوان مفضلا سكناه مع الحيوان على وجوده مع بني آدم . ذلك الذي كان يأكل الرمان والمشمش في صحاف من الذهب الإبريز المرصع بالجمشت والماس ، ويشرب اغلى الأنخاب في كئوس صنعت من أنفس الجواهر ، يرعى العشب وتنطحة الثيران بقرونها وهو ينافسها في المرعى !! ذلك الذي كانت تشنف آذانه الأوركسترا الرخيمة وهو جالس على مقاعد من العاج ، وهي تعزف الأناشيد الوطنية ، تطن مسامعه الحيوانات بعوانها وضجيجها !! إنه لا يصعب عليّ تصديق هذا الأمر لأنه أمر شائع بين كثير من الناس. فنذ عدة سنين ذهبت إلى مدينة يوماً من أيام الصيف ، وكان الوقت عصراً ، وفيما أنا أتجول في ارجائها أدى بي المطاف إلى منتزه امام بناية عمومية كبيرة لم أعلم ما هي. وقابلت رجلا تظهر على سيماته العظمة، فدخلنا في حديث طلي ، فلمحت ذكاءه في الأحاديث التي دارت بيننا .وبعد برهة قلت له : هيا بنا نجلس على هذا المقعد بينما نتمتع بالخضرة الجميلة والنافورات البلورية فأجاب : لا ، اجلس أنت. انا فلا يمكنني الجلوس لأني مصنوع من زجاج وإذا شرعت اجلس اخشى أن أنكسر ! فتأكدت أنه مختل العقل ، ونزيل من نزلاء البناية الكبيرة التي وراءنا وبعد حديث كهذا أمكنني أن أفهم بسهولة مغزى موضوعنا . فها هو نبوخذ نصر يمشي على يديه ورجليه كالحيوان، وقد كان يفخر فيما مضى بأنه أكثر من الإنسان ، فإذا به يصبح اقل من إنسان - حيوان. إني أرى حاشيته تتطلع من نوافذ القصر إليه وهو يجول بين الماشية التابعة للقصور وينادوا : حيوان ! حيوان ! ويظل على هذا المنوال سبع سنوات حتى يرجع إليه عقله ، فيرجع إلى بابل عابدا ، وضيعاً ، مقراً بعظمة إله السماء.

تصور معي البهجة التي تعود إلى السرايات الملكية إذ يعود إليها هذا الإمبراطور المجنون ، فيمشى عاقلا في قصره كما كان . يا له من وقت عظيم حينها كانوا يقصون أظفاره وشعره ! واي تغيير بين من كان يأكل الحشب مع الثيران والمعزى والجمال والخنازير و بين الملك الجالس مع الأمراء والنبلاء ! واي انتقال بين الجالس في المزبلة والمتربع على عرش العظمة ! إن أول ما يلفت نظرى عندما يقوم الملك من عرش بابل إلى المراعي ليشارك السائمات [1] في طعامها ثم يعود إلى القصر فكم تكون مدى التعاسة والبؤس اللذين يعانيهما ملك يأكل

العشب . إن العشب لا يصلح طعاماً للإنسان، إذ جُعل اللحيوان، ولكن أن يفضله إنسان على ألذ ثمرات البساتين واطيب الأطعمة فهذه مشيئة الله !

عندما أبصر رجلا خلق ليكون سلطاناً في مملكة التفكير السايم ، له من المؤهلات ما يبوئه أعلى درجات الكمال ، ثم يدنس هذه المؤهلات ويتلف حواسه جاهدا في إشباع لذائذه الوضيعة ، نازلا من عرش قوة الشباب متوحلا في أرجاس الشهوات البهيمية ، مقدماً سجاياه العالية قربانا رخيصا على مذبح الدنايا ، نازلا في ذلك نزولا متواليا، حتى تخمد فيه آخر جذوة للصلاح، وتموت فيه نخوة الرجولة والشرف ، وإني أنظر إليه في حسرة قائلا : " ها هو ملك يأكل العشب كا ثيران " وأمثال هؤلاء ربوات بلا عدد.

وفي الجنس اللطيف ترى كذلك ملكات كثيرات بعن أنفسهن لهذه المهاترات . المرأة التي وهبها الله نفوذاً عظيماً للخير ، وجاذبية و سلطاناً دونه سلطانه ذات التيجان فهي بذكائها وحنانها وابتسامتها العذبة وسليقها ، تستطيع أن تكسر من حدة الأحزان، وترد الضال، وتأخذ بناصر الضعيف .ولكنها إذا ما لبت داعي الغرور العالمى تنزل عن عرش نفوذها حتى لا تفرق عن الحيوانات الميتة التي أُخِذت من فرائها معطفاً ومن جلودها قفازا ، إلى أن تصبح فريسة لتملقات رجال فارقهم صوابهم ، ولا لذة لها إلا أن تتبع سراب خديعتهم ، عندما أبصر امرأة كهذه أصيح : " ها هي ملكة تأكل العشب كالثيران ".

وفي مراعي الغي والضلال أبصر عدداً عديدا من كان يجب أن يكونوا منتصبى القامة ، يزحفون كالحشرات على بطونهم : أيها الرجل و أيتها المرأة ، هيا ارجعوا كل إلى عرشه ، يوجد شاب شق عصا الطاعة على والدته وهرب، فانكسر قلبها عليه وهي ارملة . مرت أربع عشرة سنة ثم رجع وجاء إلى النافذة حيث كانت والدته جالسة . فنظرت ، و حالا عرفته، فقالت : " رورت ، يا روبرت تعال ، ، فقال لها: يا أمى ، لن ادخل حتى أسمعك تسامحيني ". فأجابت : " لقد سامحتك ياروبرت من قبل ، ولا يبقى شيء اسامحك عليه الآن إلا أنك ظللت في بعدك طويلا ".

أيها السامع ، لقد أُعد السماح لك من قبل ، وبحنان أقوى من حنان الأم يقبلك الله . إنهم ينتظرونك هناك فوق في القصر ، ومن هذه الحادثة أرى أن التبكيت شيء والتغيير شيء آخر. من هو هذا الملك المعجب المتفاخر ببابل وعظمتها ؟ أليس هو بعينه الذي فسر له دانيال الحلم، أو تذلل معترفاً أن الله هو إله الآلهة ورب الأرباب ؟ ومع هذا فإنه لم يتغير !! لا توجد ضلالة شائعة كالفكرة القائلة إن التبكيت مرادف للتغيير .فما التبكيت سوى رؤية الخطية ، أما التغيير فهو رؤية الغفران. التبكيت إن هو إلا نذير ، أما التغير فور ثقة . التبكيت ما هو إلا فراغ وعجز، والتغيير هر شبع وشفاء التبكيت هو حمي عطشي و تلهف ، أما التغيير فهو ري وكفاية . التبكيت وجع ، والتغيير هو دواء للشفاء الوف قد اختبروا الحالة الأولى ولكن مع هذا لم يختبروا الثانية . توجد جماهير تظن أنه حالما يفكر الإنسان جدياً في الدين يصبح متديناً لكن أقول لكم هل إذا فكر واحد منكم مجرد تفكير في أنه تاجر يجعله هذا التفكير تاجراً بحق ؟ وإذا فكر أن يكون محامياً أيجعله تفكيره محامياً ؟ أو إذا فكر بأنه مسيحي ايصيره هذا مسيحيا ؟

عندنا " فيليكس " ، فإنه تبكت ولكنه لم يتجدد. والسجان ارتعب ، ولكنه لم يتجدد إلا بقبوله الإيمان . هب أنك فكرت أن تبيع شيئاً من ممتلكاتك ، فكتبت العقد، وأحضرت الشهود أمام قاضي البيوع ، و أمسكت القلم بيدك، ولم يبق إلا أن توقع بإمضائك . لكن افرض انك لم تضع إمضاءك على العقد ، هل ينفع هذا البيع ؟ الأمر كذلك في مسألة خلاصك ، افرض انك عزمت أن تسلم ذاتك لله، وأشهدت الملائكة في السماء ليشهدوا هذا الأمر الخطير وهو نقل ملكيتك لله ، ولكنك لم تسلم، اينفع هذا الأمر شيئاً ؟ مرة اعترضت البروفسور (اراجو) الرياضي مشكلة جعلته ييأس ، وفيما هو مفكر في ترك الأمر إذا به ينظر كتابة باهتة في جلدة كتاب مغطاة

بورقة ، فلما نزعها وجد الكلمات التي نصح بها (داليرت) تلميذه وهي : " استمر يا سيدي ، استمر " . فيا أيها المتبكت استمر. عليك خطوة أخرى لئلا تضيع عليك جميع الخطوات التي خطوتها في سبيل الخلاص ، استمر.

ثم من هذه الحادثة نتعلم أنه قبل الكسر الكبرياء . إن الكبرياء قائد حسن الهندام مهيب الطلعة ، لكنه يقود جيشاً عبوساً متجهما. إن السهام البرية الخارجة من جمعية القدير ، مهيأة لمن ركب سنام العظمة , جليات يهز رمحه متحدياً ، لكن الحجارة الملس تطرحه ارضا كثور تحت سكين القصاب إن الواقف في بطن السهل لا يخشى السقوط.

ما هي عربات الإنزلاق الثلاثة التي أرى تقترب إلى فندق وضيع من فنادق وارسو ببولندا في ليلة دهماء في ١٠ ديسمبر سنة ١٨١٢؟ ومن هؤلاء الرجال الذين نزلوا منها؟

إني أرى أحد خدام الفندق يوقد لهم ناراً من خشب رطب ليصطلوا بها ؟ أولئك هم نابليون وستة من أتباعه في تقهقرهم من موسكو . لقد خمدت النار، وها نابليون يذرع ارض الطرقة لئلا يتجمد جسمه من شدة البرد . ثم يركب العربة والترمومتر بين ٢٧ درجة تحت الصفر ثم يختفي في فحمة الليل البهيم . ذاك الذي قاد جيشاً قوامه (٠٥٠ر١٨٧ را) جندياً وضابطا تراه متقهقراً وليس معه سوى ستة من أتباعه ، بل إن الذين لم يفتك هم الثلج فتك بهم الجوع، ولما لم يجدوا ملحاً يضيفونه على حفنة الشوفان أضافوا عليه البارود، اى انحدار ان حالف المجد إلى هرة الهوان ! نبوخذ نصر في القصر ، و نبوخذ نصر في الحقل !

ثم نلاحظ اهمية العقل و هول حالة من ينكب فيه . وعندي أنه لا توجد مصيبة تقع على الإنسان في هذه الحالة أشد وقعاً من هذه المصيبة . ففي عالم المرئيات أتعسها رؤية مختل ، و في عالم الأصوات أنكرها ضحكة مجنون . إن سفينة تتحطم على صخرة، فهوى مئات من ركابها في أعماق البحر ليبتلعهم اليم، و مئات أخرى يسبحون إلى البر وثيابهم مبتلة في زمهرير الشتاء ، لأخف وقعاً من عقول تتحطم على صخور التجارب والمصائب . فقلب المسيح كان يتحنن إذ يري مجنوناً يلقى بنفسه في النار ، أو يقطع جسده بالحجارة ، مع أننا كثيرا ما نهتم بتقدير المزايا الكثيرة المتعلقة بصحتنا و نغفل أهمها وهو العقل . ففي الصباح والمساء حينما تقترب لعرش النعمة أسكب سكيب الحمد من أجل نعمة العقل.

إن ابتسم الحظ لك اليوم فقد يقطب جبينه غداً ، فلا تأمن جانبه لأنه كل يوم يغير فكره إنه يصفق لك وأنت صاعد درجات النجاح ، ويسخر منك و أنت نازل . فلا تثق لحظة واحدة في رغائب قلبك نحو هذا العالم المتغير . ثبت مرساتك في الله وحده . ومن محبة المسيح اجمع أفراحك . وبعدئذ ليأت ما يأتي : الفرح أو الحزن ، النجاح أو الفشل ، الغني أو الفقر ، الشرف أو الهوان . الصحة أو المرض ، الحياة أو الموت ، الزائل أو الأبد ... الكل لك ! وأنت المسيح، والمسيح لله .

منقول من كتاب (اشهر المواعظ) مع التعديل والتنسيق لسنة 1983

الرب يستخدم هذه العظة لمجد إسمة ويجعلها سبب بركة

صفوت زكي سمعان